

تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية:
دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

**“The Impact of Islamic Beliefs on Psychological Resilience:
A Study of the Gaza Model
Within the Framework of New Kalam Theology”**

حمزة بن بوسهل بومعقل^{1*}، أ. دحمو الشيهاني²

1 جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، كلية العلوم الإسلامية، مخبر الشريعة (الجزائر)

h.boumakel@univ-alger.dz

2 جامعة غرداية، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

chihani.hammou@univ-ghardaia.dz

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/11/17

تاريخ الاستلام: 2024/10/24

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استثمار أحداث غزة من الناحية الإيمانية وبيان أثر العقيدة الإسلامية في ثبات أهل غزة لقراءة سنة، بغرض الاستفادة من هذا الحدث في علم الكلام الإسلامي كون أهل غزة أنموذجاً ناجحاً وثمره عاكسة للعقيدة الإسلامية الحقّة ليخلص البحث بمنهجيه الوصفي والتحليلي إلى الوقوف عند بعض الأسس الإيمانية وأثرها في الصلابة النفسية مع الدعوة لاستثمار أكبر للأحداث المؤلمة لأجل نشر الإسلام في العالم من خلال نموذج غزة الناجح.

الكلمات المفتاحية: الإيمان، العقيدة، علم الكلام الجديد، طوفان الأقصى، غزة، صلابة نفسية.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This study aims to explore the events in Gaza from a faith-based perspective, highlighting the impact of Islamic beliefs on the resilience of Gaza's inhabitants over approximately one year. The objective is to utilize this event within the framework of Modern Islamic Theology, presenting the people of Gaza as a successful model and a true reflection of Islamic beliefs. Through descriptive and analytical methodologies, the research identifies key faith-based principles and their effects on psychological resilience, advocating for greater utilization of painful events to promote Islam globally, using the successful Gaza model as an example.

Keywords: Faith, Belief, New Theology, Al-Aqsa Flood, Gaza, Psychological Resilience.

1. مقدمة:

شهدت الإنسانية منذ ربيع الأول 1445هـ/ أكتوبر 2023م طوفان الأقصى حدثاً سيكون له الأثر البالغ على البشرية جمعاء، فكما هالتنا همجية المحتل ومعاونيه، أعجز البشرية صبر أهل الحق وثباتهم بصلابة لا تليق إلا أن تكون نتاج رسالة ربانية محفوظة من التدخل البشري.

ولقد أطلعنا وسائل التواصل على أثر غزّة على غير المسلمين، وخاصة الغربيّين منهم الذين انجلت الغشاوة عن أعينهم ورأوا لأول مرة الصراع على حقيقته، وأتبع ذلك عندهم تساؤلات عدة عن حقيقة ما يلقّنها إياه قادّتهم، ومدى مطابقته للواقع، وحقيقة الإسلام والمسلمين، وسرّ ثباتهم...

ترجع أهمية المقالة إلى أهميّة الحدث من جهة، وإلى كونها من باكورات استغلال هذا الحدث الأليم وتحويله إلى فرصة للدعوة إلى الإسلام، وتوسيع دائرة علم الكلام الجديد بطريقة تخاطب أهل كل عصر بما يؤثّر فيهم.

_____ تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية: دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

لذا يهدف المقال بمنهجيته الوصفية لحالة أهل غزة والتحليلي لمواقفهم وتصريحاتهم إلى تفحص أثر الإيمان على النفس البشرية عموماً، وبيان الأثر الأساسي لإيمان أهل غزة في صلابتهم النفسية وثبات عقولهم رغم ما هالهم من المصاب الذي لا يطيقه البشر في العادة. وعليه تتمحور المقالة حول سؤال أساسي مفاده: كيف تؤثر العقيدة الإسلامية في نفسية المؤمن فتجعله صلباً لا هشاً؟

وتتم الإجابة من خلال أربعة محاور أساسية؛ يوضح الأول مفهوم الصلابة النفسية كما يعرفها أهل علم النفس، والثاني يبيّن مدى فعالية الإيمان في النفس البشرية كما يقدمه علم النفس ليسلمنا ذلك إلى استقصاء الحالة النفسية لأهل غزة قبل الطوفان وحينه من خلال الدراسات النفسية والفيديوهات التي وصلتنا، لتختتم المقالة بالمحور الأساسي وهو الذي يتتبع أهم المفاهيم الإيمانية التي أنتجت تلك الصلابة التي تبدت في أهل غزة: صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً. لتختتم المقالة بخاتمة وتوصيات.

2- مفاهيم:

1.2 مفهوم الصلابة النفسية:

يندرج المصطلح ضمن علم النفس الإيجابي والذي هو توجه جديد نسبيا بالنسبة لعلم النفس الغربي والذي يعنى بالاهتمام بالجانب الإيجابي من الحياة عكس النظرة السابقة المتمثلة في علم النفس العيادي، والتي تعنى بالجانب السلبي منه.

وقد وردت تعريفات متعددة للصلابة النفسية كلّها تدور حول معنى واحد وهو أن يكون الإنسان جسورا في تصديّهِ لصعوبات الحياة صلبا في مواجهتها.

فمن التعريفات ما ركّز على ما يبلّغ الإنسان ذلك كتعريفها بـ: " مجموعة من الخصائص النفسية تشمل متغيرات الالتزام ووضوح الهدف والتحكم والتحدي وهذه الخصائص من شأنها المحافظة على الصحة النفسية والجسمية والأمن النفسي بالرغم من التعرض للأحداث الضاغطة"¹ فالتعريف يركّز على الخصائص النفسية التي قامت به فجعلته متّسما بالصلابة النفسية.

ومنهم من ركّز على آثار الصلابة النفسية على المتّسم بها ليقول إنّها "قدرة الفرد على إدراك وتقبل التغيرات والضغوط النفسية التي يتعرض لها، فهي تعمل كوقاية له من العواقب الجسدية والنفسية للضغوط، وتسهم في تعديل العلاقة الدائرية التي تبدأ بالضغوط وتنتهي بالنهك النفسي"² أي أنّها لا تمنعه من التعرّض للضغوط فذلك فوق طوقه وإتّما تقيه من الانفعال بما انفعالا يفقده التحكم في زمام حياته، والانهيار تحت وقع الصدمات.

وهذان التعريفان يغفلان جانبا مهماً ركّزت عليه تعريفات عدّة وهو الجانب الإيماني أو الاعتقادي منه، أي دور الإيمان والاعتقاد في تمكين الإنسان من هذه السّمة ووقايته من الهشاشة النفسية التي تمكن الحياة من طحنه، وهو ما أوردته تعريفات أخرى.

ومثال ذلك تعريف كوبازا له بقولها إنه: "مجموعة من المعتقدات حول الذات والعالم وكيفية تفاعلها مع بعض وهي تتشكل من إحساس من الالتزام الشخصي لما يفعله الفرد وإحساسه بالتحكم بحياته وشعوره بالتحدي، وتظهر من خلال القدرة على إيجاد الحلول

_____ تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية: دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

للمشاكل في الظروف الصعبة والسيطرة على نتائج الأحداث اليومية الضاغطة³ فالصلابة النفسية حسب هذا التعريف لا يعدو أن يكون اعتقادات من الإنسان حول نفسه والعالم من حوله، ولكن هذه الاعتقادات نابعة من ذات الإنسان من خلال التزامه بالتحكم بحياته، وهذا الالتزام يعاين من خلال حلّ مشكلات الحياة، وهو ما يصدّق القول بأن كوابزا تنطلق في تعريفها له من الفلسفة الوجودية، التي ترى أن الإنسان هو من يحقّق ماهيته، ويضع هدفاً لحياته.⁴

ولا يبعد عن هذا المعنى تعريف باحث آخر للصلابة النفسية بقوله: "القدرة على استنباط معنى للأحداث الضاغطة، من خلال الالتزام والشعور بالسيطرة على الحياة ونتاجها، والإيمان بأن المتغيرات تعتبر بمثابة تحد وليست تهديداً"⁵ فمركزها في الأساس هو الإيمان والنظرة للأحداث ولكنه ناتج من التزام داخلي للإنسان بالسيطرة على حياته.

ذات المعنى نجده في تعريف آخر وهو: "القدرة العالية على المواجهة الإيجابية للضغوط وحلّها ومنع الصعوبات المستقبلية والتي تعكس مدى اعتقاده في فعاليته والقدرة على الاستخدام الأمثل لكل المصادر الشخصية والبيئية والنفسية والاجتماعية المتاحة كي يدرك ويفسر ويواجه بفعالية أحداث الحياة الضاغطة وتحقيق الإنجاز والتفوق"⁶.

أي أن هذه التعريفات تتفق في أننا إذا غصنا في نفسية ذي الصلابة النفسية سنجد أساس تلك الصلابة هي الاعتقاد بذاته وبقدراته، وهذا الاعتقاد ينتج قدرة على مواجهة الحياة وكلّما زادت القدرة زاد اعتقاده في ذاته، وكأن هنالك علاقة جدلية بين الاعتقاد والسلوك المتمثل في مواجهة مصاعب الحياة.

ولكنّها تعريفات لا تصف جميع أحوال الإنسان، ولا تفسّر حالة الثابتين في ظروف مثل ما يحدث في غزّة، ظروف يهجّر الإنسان من بيته، ويفقد أهله، ويكون بينه وبين الموت قاب قوس أو أدنى، ومع ذلك لا يزال متّسماً بالصلابة رغم أنّه لا يتحكّم في مجريات حياته، وخاصة إن كان مدنيا لا محاربا.

وخاصة إذا استحضرنا أن هنالك دراسات نفسية غريبة وصلت إلى أن التدين قد يخفف من بعض الضغوط دون البعض الآخر، فهو قد يخفف من تأثير الضغوط المالية، ولكنّه لا يفعل ذلك مع ضغوطات الحياة الزوجية، ما حدا بباحثين لاستغلال ظرف كورونا لدراسة الموضوع كونه ضغطا شديدا.⁷

وأشد من الجائحة، ما يتعرض له إخواننا في فلسطين من حرب همجية تحطت حدود الشدائد وما يتحمّله البشر ومع ذلك لا نزال نراهم ثابتين ذوي صلابة نفسية.

وعليه فانطلاقا مما يحدث في غزة، وما دمنا ضمن علم الكلام الإسلامي، فلا بد من اعتبار متغيّر مهمّ وهو: الإيمان بالله تعالى، فهو ما يفسّر صلابة أهل غزة كما سنفضّل.

ونحن بذلك لا نهمّل الجهود التي بذلها باحثو الصلابة النفسية ولكننا نحفر أكثر. فهم حفروا إلى أن وصلوا إلى أن الصلابة أساسها إيمان المرء بذاته، ولكننا نحفر تحت هذا الأساس لنجد من خلال التجربة الواقعية لأهل غزة أن الإيمان بالذات ضمانته الإيمان بالله تعالى، أي أنّ الإيمان بالله هو أساس أساس الصلابة النفسية، وما لم نفعل ذلك نكون أهملنا تجربة بشرية قاسية بنتائج مبهرة وهي تجربة غزة وخاصة بعد السابع من أكتوبر. وفي ذلك خسارة للنفس البشرية وللبحوث العلمية، وإهمال للمنهج العلمي الموضوعي.

وعليه يمكن أن نعرّف الصلابة النفسية في البحث بأنّها: ملكة استطاع بها أهل غزة مواجهة مصاعب الحياة والتغلّب عليها، واستغلال أمثل لكل مقدّراتهم وسحب معنى إيجابي عليها، نابع من إيمان راسخ بالله تعالى، ينتج نظرة أعمق لذواتهم وأوسع للحياة التي تخرق الحياة الدّنيا إلى الآخرة.

3. الإيمان عاملاً نفسياً:

يمكن ملاحظة أثر الإيمان في الجانب النفسي من منطارين: المنظار الشرعي من خلال أي الكتاب المجيد، والسنة المشرفة، وتراث المسلمين وخاصة التزكوي منه الموسوم بالتصوف، كما أق إليه من منظار علم النفس المعاصر، والغربي منه بالذات، ولأن المقالة تنضوي ضمن علم الكلام الجديد المشغول بالدعوة إلى العقيدة الإسلامية والدفاع عنها بالأدلة، واستغلال كل ما وصلت إليه العلوم، فالأنسب أن يجمع بين المنظورين، وقد اخترت أن أكتفي في هذه النقطة بالبحوث النفسية المعاصرة على أن أعرض للأدلة الشرعية عند الحديث عن الحالة النفسية لإخوتنا المسلمين في غزة وهم لا يزالون تحت وطأة حرب الإبادة التي تشنها عليهم آلة الحرب الصهيونية.

كان هنالك توجه في علم النفس، ينظر إلى الدين على أنه مجرد وهم، أو تشويه للواقع يمنع الإنسان من تحقيق ذاته، ويلبس أتباعه قسراً ثوب طفولة نفسية زاجاً إياهم في هذيان جماعي⁸.

لكن البحوث النفسية المتواترة وصلت إلى النقيض من ذلك إذ بات التدين عندها علاجاً لا مرضاً،⁹ فقد وجدت الدراسات المختلفة أن المتدينين يتصفون بصفات عدة؛ منها: التغلب بسهولة أكبر على أزمات الحياة - لديهم استراتيجيات فعالة لكبح تأثير الصدمات - يبدون ثقة أكبر بالشفاء إذا ما أصيبوا بمرض - يتعاطى المؤمنون الكحول والسجائر أقل بكثير من غير المؤمنين.¹⁰

ولما أراد أحد الباحثين التأكد من ذلك عمد إلى الدراسات التي أجريت في أكبر مجلتين متخصصتين في علم النفس بين عامي 1978 و 1989 فيما يتعلق بالعلاقات بين الإيمان والصحة النفسية، وتوصل إلى النتيجة الآتية: يؤثر التدين في 84% من الحالات بشكل إيجابي وفي 13% بشكل حيادي وفي 3% فقط بشكل سلبي.¹¹

وقد تأكّدت هذه النتائج بدراسات لاحقة اختلفت في المكان والزمان واتّحدت في النتيجة، فقد أثبتت دراسة عن التدين والتطرف الإيديولوجي أن التدين والروحانية من بين العوامل الرئيسية المرتبطة بالرفاهية الذاتية وأن للتدين أثرا إيجابيا في الحد من التوجه للتطرف¹².

وبعد أن ابتليت البشرية بداء كورونا، رأى باحثون أنه ظرف مناسب لدراسة العلاقة بين التدين والازدهار النفسي خلال الجائحة كونها ظرفا قاسيا يمكن اتخاذه مقياسا لذلك، وقد ذكرت الدراسة أن الدراسات السابقة أثبتت أن هنالك آثارا إيجابية جمّة للتدين في حياة الإنسان منها تحسين الصحة العقلية، والعلاقات الاجتماعية، والرضا عن الحياة، واحترام الذات، والانخفاض المستمر للاكتئاب والقلق، وتؤكد الأبحاث على أهمية الدعم الاجتماعي الديني في الرفاهية النفسية وخاصة لكبار السن¹³

وقد انتهت الدراسة المذكورة زمن كورونا إلى أنّ الذين قلّت أهمية الدين في حياتهم، وقلّت ممارستهم له، كل ذلك كان له تأثير ملحوظ على مستوى ازدهارهم النفسي فقد انخفض رضاهم عن الحياة، والسعادة، بل والصحة العقلية والبدنية، والشعور بالمعنى لتخلص الدراسة إلى أنّه كلّما قلّ ارتباط الشخص بالدين كلّما انخفض مستوى ازدهاره في جوانب الحياة المختلفة¹⁴.

وقد تدعّمت هذه النتائج بدراسة جرت بعد هذه الدراسة بسنة، حيث أجريت على 529 ممن عانوا حياة صعبة متمثلة في تخلي الأهل عنهم وعيشهم في دور رعاية اليتامى¹⁵.

أرادت الدراسة الوقوف على أثر الروحانية على الجانب النفسي لمن عانوا حياة صعبة، وقد نوّعت المراجع الروحية حتى تستوعب التظاهرات الروحية المختلفة في حياة المختبرين خاصة وأنهم من بلدان شتى وخلفيات عدة، لتؤكد ما سبقها من الدراسات أن للروحانية والتدين أثرا إيجابيا واضحا على نفسية الإنسان بل ودقّقت في ذلك فوجدت أن للعلاقة بالله تعالى أثرا إيجابيا على الصحة العقلية، إذ أبلغ المتسربون من الرعاية الذين لديهم موضوعات روحية حول علاقتهم بالله عن صحة عقلية أفضل من أولئك الذين لم يفعلوا ذلك.¹⁶

_____ تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية: دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

كما كشفت بيانات الدراسة أن من قدّموا مرجعين روحيين وأكثر تمتعوا برضا أعلى بكثير عن الحياة، وبصحة جسدية وعقلية أحسن، وكانت لهم مرونة أفضل في مواجهة مصاعب الحياة¹⁷

وحين دققت الدراسة في البيانات أكثر لمزيد تبين مدى تأثير المراجع الروحية على الجوانب النفسية للإنسان وصلت إلى نتيجة أن الرضا عن الحياة ارتبط بمرجعي: "العلاقة مع الله تعالى وتعاليم المعلمين الروحيين" وأن الصحة العقلية ارتبطت فقط بمرجع العلاقة مع الله تعالى، وأما الصحة البدنية فتعلقت بالإشارة إلى مرجعي: "الدعم الروحي، والهوية الروحية" وأما المرونة فارتبطت بمراجع: العلاقة بالله، والدعم الروحي، ووجود هدف أعلى، وتعاليم المعلمين الروحيين.¹⁸

كل هذه الدراسات تجعل العقل البشري يصل إلى نتيجة واحدة وهو أن الإنسان مجبل على التدين، وأنه لا مفرّ له منه إن هو ابتغى السعادة الدنيوية قبل الأخروية.

هذا ولنا أن نتخيّل حين يتدين الإنسان بالدين الحق الذي يرفع طاقات العقل مع الروح، ويجعل الإنسان كلّاً متكاملًا لا يناقض بعضه بعضًا، فشتان بين دين يحسّ الإنسان فيه بتناقض بين ما يدعو إليه دينه، وما يدعو إليه عقله كما في المسيحية، وبين الإسلام الذي فجّر طاقات العقل وتحداها أن تصل لحقيقة غير التي ذكرها، ولم يكن التحدي مقتصرًا على الأتباع بل وعلى المعاندين أيضًا مهما قرب زماهم من نبي الإسلام أو بعد.

وشتان بين دين يعتبر المنتمي إليه عرقيا هو الإنسان الوحيد بينما الآخرون مجرد أغيار لا قيمة لهم فيشعر بالغربة حين يعاشرهم وهم الأكثرون، وبين دين يعتبر البشر كلّهم مكرّمين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء 70].

فإذا كانت الدراسات النفسية تقول إن المتدين بأي دين هو أفضل حالا من غير المتدين فلنا أن نقول: إن المتدين بالدين الحق الذي تتكامل فيه طاقات الإنسان: العقلية والروحية والاجتماعية، هو أفضل حالا من غيره من المتدنيين بأديان باطلة.

4. لمحة عن الوضع النفسي في غزة:

تمت الإشارة فيما سبق إلى أن الدراسات النفسية التي ابتغت قياس أثر الإيمانيات في الصلابة النفسية ترصدت الظروف العويصة للناس كجائحة كورونا، والعيش في دور اليتامى، ولكن هذه الظروف على شدتها ليست شيئاً أمام ما عاناه الفلسطينيون منذ بداية احتلال أرضهم، وأما ما عاناه الفلسطينيون في غزة فهو الأشد ولا يزال يزداد شدة وصعوبة، ففي سنة 2016م، أعلنت الأمم المتحدة أن القطاع بحلول 2020 لن يكون صالحاً للعيش¹⁹، وذلك للظروف التي يعرضهم لها الاحتلال؛ كالبطالة، وتجزئة الأراضي، وهدم المنازل، والمستقبل غير الآمن والظلم المستمر²⁰، ناهيك عن الحروب التي سلّطت عليهم؛ فبين 2008 و2014 شنت عليهم حروب لا تتحملها البلدان الشاسعة بله قطعة محدودة المساحة تعد الأكثر كثافة في العالم، كلّ ذلك جعل أهل غزة عرضة لصعوبات شتى من الطبيعي أن يكون لها أثر سلبي على الجانب النفسي، فالحصار والحرب جعلهم يعيشون بين فقد الأحبة، وفقد الصحة، وانعدام الأمن الغذائي، ومحدودية الوصول للرعاية الصحية، مع نقص الكهرباء والوقود²¹ كلّ ذلك جعل الدارسين يقفون على انعكاسات هذه الصعوبات على الجانب النفسي، ففي دراسة تمت على 367 مشاركاً في دراستهم، ذكر 92 ٪ أنهم تأثروا بالزيادات الحادة في الأسعار بسبب الحصار وأفاد 333 طالباً أنهم رأوا دراستهم معرضة للخطر بسبب انقطاع الكهرباء ونقص الغاز (83.5 ٪)؛ وأفاد 285 طالباً أن أسرهم لم تتمكن من المساعدة في دفع رسوم الجامعة بسبب نقص المال (71.4 ٪). أخيراً، تبين أن 58 ٪ من المجيبين غير قادرين على تلقي الرعاية الطبية المناسبة.²²

ذلك ما أدى إلى ظهور أعراض الاكتئاب والقلق؛ فأكثر من 10 ٪ من الرجال والنساء الذين تمت مقابلتهم في غزة، أبلغوا عن أعراض جسدية، وهوس قهري وإرهاب، وكانت النسوة أكثر تأثراً في ذلك من الرجال، وأما الأشخاص الذين سجلوا درجات أعلى في العناصر المتعلقة بتأثير الحصار عليهم فقد أبلغ 66.6 ٪ منهم عن مزيد من أعراض ما بعد الصدمة، و42.3 ٪ منهم أبلغوا عن أعراض الاكتئاب، والذهان (12 ٪)، وفقاً لذلك وجد أن جودة حياة الفلسطينيين في شتى مجالاتها الجسدية والنفسية والبيئية كانت من بين الأدنى في العالم²³.

لتنتهي الدراسة إلى أنه كلما زاد تأثير الحصار على الظروف المعيشية انخفض مستوى صمودهم وأملهم، وزاد ضيقهم العقلي، بما في ذلك الاكتئاب والقلق والإجهاد²⁴.

هذا الذي سجّله الدراسات قبل طوفان الأقصى المبارك أمّا ما بعده فقد رآه العالم عياناً، وعلى وسائل التواصل المختلفة، تلك الوسائل التي جعلت أساساً لإلهاء الناس فإذا بها مع الطوفان توقظ كلّ نائم فيهم، وتحرك كل كامن من الإنسانية لهول ما رأوا من تباين بين شعارات العالم من جهة وما تفعله آلة الدمار الصهيونية مدعومة بقوى العالم صاحب الشعارات من جهة أخرى.

وأما ما لحق الفلسطينيين منه فمما لا تطيقه العقول ولا تقدر عليه إلا النفوس العظيمة. ففي كلّ يوم نسمع لونا جديداً من الدمار الذي لم تسلم منه قطعة من أرض غزة، ولا استثنيت منه مؤسسة من المؤسسات التي تواضع العالم على حمايتها في الحروب، فقد أصبحت المستشفيات والمساجد والمدارس أهدافاً حربيّة، والصبية والنسوة باتوا ممّا يتفخرون بقتلهم، بل وحتى المناطق التي قالوا إنّها مناطق آمنة إذا هي تستهدف.

رأى الفلسطينيون من حرب الإبادة ما لم يذقه غيرهم، كما رأوا في الوقت ذاته تحاذل القريب قبل البعيد، وحصار الأخ لهم حتى قال أحدهم: الجنة أقرب إلينا من مصر.

هذا الذي رأوه قبل الحصار وبعده كان له أشدّ الوقع النفسي، ولكن في الوقت ذاته سجّلت الدراسات قبل الطوفان، والكاميرات بعده صلابة نفسية أبقاها الفلسطينيون

جعلت العالم حائراً يتساءل: أئى لهم أن يصبروا كل هذا الصبر، فأما بعده فكما أسلفنا أن وسائل التواصل نقلت المشهد كما هو متغلّب على الآلة الإعلامية العالمية التي كانت قبل ذلك توصل الصورة منقوصة، لتعكس ما يريدون أن يوصلوه إلى جماهيرهم، فقد رأى الغربيون الفلسطينيين على حقيقتهم كما رأوا الصهاينة الذين كانوا يتصورونهم مظلومين على حقيقتهم متجاوزين لحدود الظلم.

وأما ما رآه الناس من غزّة فقد لفت انتباههم أنّهم كلّهم أبرزوا صموداً نفسياً مثيراً للعجب، وكلّهم مجمعون على حمد الله والثناء عليه، ودعائه، والاستشهاد بأي الكتاب المجيد وبأحاديث نبيّه الكريم بما يناسب حالهم، فلم يُر منهم متذمّر أو معترض على الله، ولا رأي منهم من قال إنّّه يختار المسالمة والدّل للاحتلال.

وكما أشير قبل فإن وسائل التواصل تعكس واقع الحال فإذا كانت الآلة الغربية لم تستطع أن تحجب الحقيقة فمن باب أولى لن يستطيع غيرها ذلك، وعليه فإن ما نراه من انعدام الهشاشة النفسية هو حقيقة حال أهل غزّة كما سأفصل في النقطة اللاحقة.

وأما ما سجّلته الدراسات قبل الطوفان فملخصه أنّ ما نراه من ثبات وجداني، ويقظة عقلية في الحرب الآن هي نتاج تربية وتأقلم مع الظروف، بل واجتهاد في التغلّب عليها حتى وصلوا إلى مرحلة يصنّعون فيها من الأسلحة والتقنيات ما يتغلبون بها على من تمويله مفتوح من أعنى القوى.

ففي دراسة سنة 2021م حاولت أن تقف على آثار العيش تحت الحصار، وجدت أن الفلسطينيين يتسمون بمرونة مكنتهم من التغلب على كثير من الصعوبات، فقد تمّ العثور على مجموعة من 400 مراهق فلسطيني يستخدمون تقنيات نفسية للتكيف والتطوّر، كما أنه من بين 1068 أسرة في القطاع كانت درجات المرونة مرتبطة إيجابياً بإحساسهم بالمشاعر الإيجابية التي تجمع بين الحماس واليقظة والتصميم والشعور بالفخر، كما أنّهم يتسمون بالدعم الاجتماعي، والدّعم الأسري²⁵.

_____ تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية: دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

والدراسة نفسها لاحظت أن النسوة أكثر عرضة للضغط النفسي وفي ذات الوقت لاحظت أنّهن الأكثر مرونة، فقد سبّلن أنفسهن في سبيل الله لمقاومة الاحتلال وتعزيز رفاههن النفسي ورفاه أسرهن، وإظهار مستوى أعلى من المرونة²⁶.

هذه المرونة ممّا عرف بها المجتمع الفلسطيني، وهي التي مكّنته من الصمود أمام أعتى قوّة لا تفهم من القانون إلا قانون القوّة، وهو صمود ليس نابعا من ذات الفلسطينيين بل من إيمانهم بالله تعالى، فكلّ ما يعيشونه من صعوبات هي في النهاية ابتلاءات منه سبحانه، ليرى إيمانهم ويعلي درجاتهم،²⁷ هذا الذي يعزز صحتهم النفسية وقدرتهم على الثبات، حتى باتوا أقوى نفسيا ممّن هم في ظروف أحسن، ففي دراسة بين الفلسطينيين والأردنيين، وجدت أن الأردنيين كانت الحالة النفسية أو ما يعبر عنه بالرفاه النفسي وجودة الحياة، كانت عند الفلسطينيين أحسن منها عند الأردنيين رغم تباين الظروف²⁸.

ولم تقتصر صلابتهم في الجانب النفسي فقط بل وفي جانب الوعي، ففي دراسة أرادت قياس مدى وعيهم بالحرب النفسية التي يسلطها عليهم العدو وارتباط ذلك بصلابتهم النفسية وجدت أنّ مستوى الصلابة النفسية جيّد عندهم بنسبة 75.5%، وأن مستوى إدراك السكان لأساليب الحرب النفسية يقع عند مستوى جيد بنسبة 78.2%²⁹

هذا وقد أشارت الدراسات إلى نقطة قوّة في المجتمع الفلسطيني جعلته ثابتا رغم الظروف وهي التماسك الاجتماعي والشعور بالانتماء، فزيادة على ما أشرنا إليه من مرونة الأسر ودور المرأة الإيجابي فإن شعورهم بالانتماء إلى مجتمع متكافل، يشعر الفرد فيه بالمشاركة الشخصية في نظام يشعره بالقيمة، والمشاركة الفعّالة، بل وأبعد من ذلك حين يشعر أنّ لمجرّد الانتماء إلى مجتمعه معنى عظيما³⁰ هو في حالة فلسطين: الأرض المباركة التي ذكرت في القرآن، والمجتمع الحامي للمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين.

وهذه الدراسات لكونها نفسية لم تفعل في المعاني الإيمانية التي حمت الفلسطيني من الانهيار وهو الذي أبتغي الوقوف عليه.

5. أهم المفاهيم الإيمانية المثبتة لأهل غزّة:

في هذا العنصر سنقف عند بعض الإيمانيات التي هي أساس الثبات الإعجازي الذي رآه العالم في أهل غزّة حيث إنهم حافظوا على صلابتهم النفسية وحضورهم العقلي رغم ما ابتلوا به ممّا لا يتحمّله إلا النزر اليسير من البشر.

ويمكن في سبيل ذلك سلوك طرق عدّة، إذ يمكن أن أورد ما كتبه علم النفس الإيجابي حول موضوع الإيمان والصلابة النفسية وأسقطه على غزّة، لكنّي أعرضت عن ذلك لأنّي لا أريد أن أجعل علم الكلام تابعا لعلم النفس وخاصة وأنّه ذو خلفية علمانية مؤسسة على النظرة النفعية الدنيوية³¹، كما يمكن أن أقيمه من خلال منهجية التفسير الموضوعي فأجمع آيات قرآنية تفني بغرض المقالة، ولكن لفراة الحدث، وجدّته أثرت أن أنطلق من خلال الأحداث ذاتها، أي أجعل تصريحات أهل غزّة المحور، ثم أعرض بعد الأدلة التي أسست لمواقفهم مستأنسا ببعض ما ورد في علم النفس.

1.5 الإيمان بالله تعالى:

يقول أحد الفلسطينيين عارضا حاله مع فقد الأحبة: (ذلك الشجر الذي اقتلعهو سنعيد زرعهم، لكن من يرّد لنا أحبابنا، ومن يرجع لنا أصحابنا، كل واحد منهم رحل أخذ جزءا من أرواحنا وأكبادنا وسعادتنا، والله حتى الابتسامة ما عدنا نستطيع أن نخرجها من قلوبنا فقد غابت معهم تحت الثرى، عزأؤنا أنهم رحلوا إلى ربهم مظلومين ثابتين لم يبدّلوا تبديلا، عرضت عليهم الدنيا كلّها فركلوها بأقدامهم ومضوا إلى ربهم سبحانه وتعالى.

والله لقد ودّعنا من الأصحاب والأحباب والجيران والخلان ما جعل العين تحف، ليس قسوة ولا بلادة ولكن ما عاد في العين ماء يجري، ولكن والله لا نقول إلا ما يرضي ربّنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون، والملقى الجنة، عزأؤنا أنّها دنيا فانية كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام، عزأؤنا أن الملقى في جنّات ونهر، في زمرة النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، عزأؤنا أنّنا

_____ تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية: دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

اجتمعنا معهم في الدنيا على محبة الله، لا على مصلحة ولا على جهل، أحببناهم لله، وعلى أمل أن نلقاهم في الخالدين هنالك حيث لا فراق ولا غياب ولا أحزان).³²

هذه الكلمات تعكس حال أهل غزة، كما تعكس أثر الإيمان بالله في تعزيز الإنسان في مصابه.

فكل من أصيب في فقد الأحباب والأقارب علم أن ذلك الشعور ليس باليسير، هو شعور يزلزل كيان الإنسان ويختبر إيمانه، ويحرك ما كمن فيه من ملكات التفلسف فينطلق سائلا: ما الحياة؟ وما الموت؟ ولم الألم؟... وغيرها مما يفرضه عليه المصاب، هذا في حال فقد حبيب بوفاة طبيعية فكيف إن كان الحال كما في غزة يقتلون بالمئات وتنقل عائلات كاملة من الحياة الفانية إلى الباقية، يموت الكبار ويبقى الصغار، والعالم يشاهد ولا يتحرك، بل ويسهم الفاعلون فيه في المصيبة... كل هذا المصاب لا يعزّيه إلا الإيمان بالله تعالى.

وذلك أنّ الإيمان بالله تعالى هو لبّ الروحانية وأساس الدين، وهو الأصل الذي يوسّع مدارك الإنسان ويحرّره من رقة اللحظة الحالية، وأسر المادّة، فهو يضيف على الحدث المعنى، فالمؤمن المبتلى يتذكّر أنّه بيد الله تعالى وأنّه إليه راجع لينظر أصبر على مصابه أم جزع.

وأن كل ما هو عليه من المصاب إنّما هو اختبار من الله تعالى له ليرقيّ درجته، ويرفع قدره فيكون أهلا للسكن مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هنالك سيحدّ ليلقى ربّه صابرا محتسبا غير جازع، لينال الأجر في اللحظة التالية والحياة التي تتلو الحياة الماديّة التي هي دنيا، حتى صار الواحد منهم يستشهد العديد من أهل بيته، وصارت المرأة تشكل في فلذات كبدها فتقول بكل صلابة نفسية: اللهم خذ من دماننا وأبنائنا حتى ترضى³³، حتى قيل: إن الحصار قد ربى جيلا عظيما³⁴.

وهذا المستوى الذي وصل إليه أهل غزة ليس مؤسّسا على الإيمان بالله فقط، بل على إيمان بالله على الدّين الحقّ، ذلك الدّين الذي يحس المنتمي إليه أنّه كلّما غاص فيه وعمل به كلّما اتّسق مع ذاته، وكلّما ازداد توعّلا فيه برفق. فقد لاحظت البحوث النفسية، أنّه على الدّور المهم للروحانية بعد الأزمات إلا أنّه يمكن أن تكون لها تأثيرات سلبية إذا واجه المؤمن

بعد الأزمة فجوة بين ما يؤمن به وتأثيرات الكوارث، وأن تلك الصراعات مرتبطة بالبحث الروحي³⁵، وعليه فلا يمكن للدين أن يحفظ للإنسان ثباته في أزمة مثل ما يحدث في غزوة ما لم يكن متسقاً مع العقل اتساقاً لا تزعزعه الأهوال مهما عظمت.

وعلى ذكر العقل فقد وجدت الدراسات أن للإيمان بالله تعالى أثراً إيجابياً على اليقظة العقلية للإنسان³⁶، واليقظة العقلية تعني أن ينتبه الإنسان لما يحدث حوله وما يحدث داخله، ويتحكم في الأفكار السلبية التي تطرق ذهنه جراء ما يتلى به من الصعوبات³⁷، وهذا الذي نلاحظه في أهل غزوة، فهم كأبي بشر أكد انتابهم الأفكار السلبية جراء ما يحدث لهم من المصائب، لكن مع ذلك نراهم إذا تحدّثوا كانوا يجمعون بين الفصاحة والصدق واختيار الألفاظ، وترتيب الأفكار، ولا يسمحون لمشاعرهم أن تتحكم فيهم فلا نراهم يسبون الصهاينة ولا معاونيهم وأذناهم، وكل ذلك من اليقظة الذهنية، فإذا كانت الدراسات توصي بتعليم أساليب اليقظة الذهنية لما لها من أثر إيجابي على نفسية الإنسان³⁸ فمن باب الإنصاف والموضوعية العلمية أن ينشر الإيمان بالله تعالى بين البشرية إن كان العلم يتبغي خير الإنسان.

وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح اليقظة قد ورد في التراث التربوي الصوفي الإسلامي قبل، وهو الذي أعمل العقل في الإيمان بالله قبل أن تعمله البحوث النفسية، فقد عرّف "العارف بالله" بأنّه: كامل اليقظة والرضا. وذكر من تفصيل اليقظة ما يلي: "تيقظه ورصده لما يتقلّب فيه الوجود من الأطوار من خير أو شر أو غير ذلك فيعلم في كل فعل من ذلك وفي كل أمر أيّ تجلّ للحق هو البارز فيه؟ ومن أيّ حضرة كان ذلك الطور ولماذا وجد؟ وماذا يراد منه؟ فيعطي لكل شيء من ذلك، وكل أمر ما يستحقه بحكم الوظائف والآداب والمقابلات التي هي من مقتضيات العبودية حتى لا يشذ عليه من ذلك في كل مقدار طرفة عين من الزمان شيء، وهذا الأمر هو المعبر عنه بالـ "مراقبة" في مقام العارفين³⁹.

تأثير العقيدة الإسلامية في الصلابة النفسية: دراسة لنموذج غزة في إطار علم الكلام الجديد

ففي هذا النص ربط تام بين اليقظة والإيمان بالله إذ جعلها من مقتضيات العبودية. كما أنّ فيه إشارة إلى أن المنهج التربوي الإيمان الذي سلكته غزة يصل بالإنسان إلى المقامات السلوكية العالية مما ينبغي أن يدرس ليعمّم.

وتجدر الإشارة إلى أن الإيمان بالله تعالى يوصل الإنسان إلى مرحلة يمكنه أن يتحكّم فيها بمشاعره تحكّماً كلياً بل وبما يهواه، وهو تحكّم لا يخرج به من طور الإنسانية، ولا يصيبه ببلادة الشعور وإنّما يرفعه إلى مقام السيطرة على مشاعره، وتحويل الألم إلى قوّة دافعة للأحسن، وهذا الذي تعلّمه المسلمون من سلوك النبي ﷺ بعد وفاة ابنه إذ قال: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا» أي أن هنالك مستوى المشاعر المعبر عنه بالحزن ودمع العين، وهنالك مستوى التحكّم فيها حتى لا تنفلت عن الشرع والعقل.

والحق أن تأثيرات الإيمان بالله أوسع من ذلك ولكن نكتفي بهذا لنذكر إيمانيات أخرى لها أثر إيجابي في ثبات أهل غزة وإن كان يمكن أن تدرج كلّها تحت الإيمان بالله تعالى.

2.5 الإيمان باليوم الآخر: مما طالعنا به وسائل التواصل فيديو لأحد شهداء جنين وهو يحتضر فصور لحظاته الأخيرة ومما قاله فيها: (يا أمي [أنا محاصر ومصاب والدرون من فوق، أحبك أنت وأبي، أحبك كلّكم، أدعوا لي وقدموا صدقة جارية عن روحي، إن شاء الله سأكون شفيعاً لكم يوم القيامة... اصبروا واحتسبوا سأكون شفيعكم يوم القيامة إن شاء الله، أخي الحارث استشهد، إن شاء الله سألق به، عملنا ما نستطيع والباقي على الله، الحمد لله رب العالمين).⁴⁰

وآخر يحدث ابنته الصغيرة وهي جنة هامة فيقول: (بلّغي سلامي حبيب الأمّة صلى الله عليه وسلّم، قولي له إني أحبه كثيراً)⁴¹ وثالث يقول: (والله لست خائفاً إذ أن بيني وبين الجنة الموت فقط)⁴².

يعتبر الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان التي لا يتم دين أحد بغيرها، ولها انعكاس واضح على سلوك الناس ونظرتهم للحياة، بل إنّها الأساس للبناء السلوكي والأخلاقي كلّ، ففرق بين المؤمن بأن هنالك يوما آخر سيسأل فيه عمّا بدر منه، وبين من يرى أن الحياة مقتصرة على الدنيا.

وشتان بين من يرى أن الحياة الدنيا مجرد ممرّ إلى دار البقاء، وأنّها مجرد حياة عمل وأن حياته الآخرة هي الحيوان، وأن كل ما فيها من ابتلاء إنّما هو لنيل الجنة التي وعد المتّقون وبين من يرى الحياة مقتصرة على الدنيا. لذلك نرى القرآن الكريم ربط بين فساد العقيدة في الآخرة وفساد السلوك إذ قال ربّنا مخاطبا النبي موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿طه 15-16﴾. أي أن الإسلام جاء ليهدّب نفس الإنسان ويرقيها ويجعل اليوم الآخر حافظا لها من هواها، وقد أبدت لنا غزّة المستوى الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان من تهذيب النفس حين يقول وهو في مستوى المصيبة: اللهم خذ منّي حتى ترضى. وتعبير آخر: إني أهوى ما تهواه، لأني أوّمن بالحياة الأخرى، لذلك أنا ثابت في مصيبي صابر لأنال الدّار الآخرة.

فالإيمان العميق باليوم الآخر يحمي الإنسان من الانهيار تحت وطأة المصائب كما حمى أهل غزّة من ذلك، وفي ذات الوقت يحميهم من الحيل النفسية التي قد يتهرب بها الإنسان من واقعه بشعارات طنانة، وأمور غير واقعية ومحاولات الالتفاف على المصيبة أو العمل الشاق لإعمار ما نتج عن المصيبة⁴³ إذ نيل الجنة مشروط بالصبر من جهة والعمل على الانتصار على المصيبة وخاصة إن كانت حربا يراد منها القضاء على الإيمان والعقيدة حينذاك لا حيلة إلا المجاهدة واتخاذ جميع الأسباب وهو الذي ظهر في غزّة أي أنّنا أمام معادلة عقديّة إسلامية مفادها: لا خوف من الانتقال من الدنيا إلى الآخرة في سبيل القضية ولكن بعد الإتيان بجميع الأسباب للانتصار على العدو والعيش في الدنيا عيشة كريمة. أي أن الإيمان بالآخرة هو دافع للصبر وليس مهربا من المصيبة كما يفعل من ينتحر.

3.5. الانتماء للحق:

تتحدث امرأة مقدسية عن جنود الاحتلال المسلطين على المصلّين وحين تسألها محاورتها هل أنتم ثابتون تقول بكل صرامة ولغة جسد مؤكّدة: (ثابتون كالجبال الرواسي في فلسطين رؤوسنا شامخة، لن نركع إلا لله، دائما صاحب الحق قويّ ولو كان أعزل، نحن عزّل لكن انظري إلينا نحن راضون)⁴⁴ وأحدهم يسأله المذيع عن مدى صبره إذ أن البعض يقولون إن الشعب قد ملّ فيجيب: (صابرون صابرون مهما كان نحن مع جماعتنا) يقصد المقاومة⁴⁵ ومن الانتماء الانتماء للحزب النوراني الذي في صدره رسول الله، فهذه فتاة تنعي أمها الشهيدة قائلة: (فداك نفسي يا رسول الله، فداك أمي يا رسول الله، فداك أبي يا رسول الله)⁴⁶.

يركّز القرآن على هذه القضية، إذ يقسم الناس إلى فريقين: أهل الحق تحت راية الأنبياء، وأهل الباطل تحت راية الشيطان، ويدل دلالة قاطعة أن النصر حليف أهل الحق في أي عديدة؛ منها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة 21] فنلاحظ أن الآية بدأت بكلمة "كتب" أي أن النتيجة محسومة، ولم يكنف بتلك الكلمة بل استعمل في الآية أربع أدوات توكيد؛ اثنان منهما في كلمة الغلبة، مما يعني أن المؤمن مهما كان في حالة انهزام لابد أن يكون متيقّنا بالانتصار يقينا تاما، وأن هذا اليقين لابد أن ينتج ثباتا في حالة الضراء، فقد ذكر القرآن أن هنالك مستويين: مستوى التميّ ومستوى اللقاء إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (143) [آل عمران: 143]، أي أنكم لما أيقنتم أنكم أهل حق فقد عبرتم عن غبطتكم واستعدادكم لنصرة الحق بتمني الموت، ولكن إياكم والتراجع حين يجدد الجد، إذ إن أهل الحق منتصرون في النهاية ولكن ليس كل أفراد الحق يمكن أن يثبتوا للنهية فليس لكم إلا الصبر والثبات لتحشروا مع أهل الحق المذكورين في قوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء 69].

هذا المفهوم هو الذي جعل أهل غزّة ثابتين لأنهم مع الحق، بل إنهم صاروا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم من خاصّة أهل الحق إذ إنهم من مصاديق قوله تعالى حين توعدهم اليهود: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَٰئِكَ بِأَسْوَءِ شَرِّدِينٍ﴾ [الإسراء: 5]، فالآية تضيف العباد إلى الله تعالى إضافة تشريف، وترسيخا لليقين بانتصارهم المحتوم، وما يزيد أهل غزّة ثباتا استبشارهم بحديث: « وإن أفضل جهادكم الرِّباطُ، وإن أفضل رباطكم عسقلانٌ »⁴⁷ لتكون النتيجة أن أهل غزّة ثابتون لأنهم مع فريق الحق، بل هم من خاصّة الخاصة ومن نخبة أهل الحق.

لذلك نرى أبا قد فقد أبناءه يدعو الله أمام المستشفى بصوت عال: اللهم إن كان صبرنا من أجلك فرضنا بالخلافة خلافة على منهاج النبوة، خلافة تغيظ بها الكافرين، والنصارى واليهود والملحدين يارب.⁴⁸

ثم إن هنالك مفهوما آخر لأهل الحق هم الذين سبقوا في النضال ضد المستعمر وانتصروا عليه، والجزائر هي النموذج الأبرز في العالم الإسلامي لذلك نرى امرأة عجوزا تتحدث قائلة: نحن أقوىاء. نحن الفلسطينيين. والله لو كان لي سلاح لحاربت معهم. نحن مثل ثورة الجزائر. نحن لا ننهزم.⁴⁹

4.5 الشهادة فضل:

هذه أم تنعي ابنها فتقول: (الفراق صعب لكن طلبها ونالها، هنيئا له الشهادة).⁵⁰ وقد اشتهر فيديو لأب فقد عديدا من أبنائه وحين رأى أحدهم يبكي صرخ: (لا تبك، كلنا مشاريع شهداء)⁵¹، وشاب صغير لا يجاوز 15 سنة من عمره يتحدث بثبات عجيب قائلاً: استشهد أخي الأول فقلت الحمد لله، ثم لحقه الثاني وأنا صابر. ثم أتبع قائلاً: نحن المساكين، أما هم فطوبى لهم، فهم عرسان في جنّات عدن، تجري من تحتهم الأنهار، قد زفوا إلى حور العين.⁵² وامرأة في ثبات عجيب تنعي ابنيها الشهيدين طالبة ممن كان حولها أن يكبروا الله ويباركوا لها شهادة ابنيها ثم قالت: طلب مني أن أزوجه أمس، ها هو اليوم يتزوج، باركوا لي.⁵³

هذه المشاهد من الثبات صنيعة الإيمان بأن الشهداء ليسوا أمواتا بل أحياء مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[آل عمران: 169-170] هذه الآية هي قطب الآيات والأحاديث التي تعرض فضل الشهداء وما لهم من الأجر، فالشهيد ميت ظاهرا لكنه حي حقيقة، وهو غير مقطوع الصلة بأهله بل هو مستبشر بهم. هذا المعنى الذي يجعل الأم الثكلى صابرة، والأخ الذي فقد عديدا من إخوته مستبشرا، والأب المكلوم ثابتا.

5.5 الارتباط الشديد بالقرآن العظيم:

القرآن الكريم هو خزان الإيمان، وصانع عقل المسلم الذي ينظر من خلاله إلى الكون فيرى فيه ما لا يراه الآخرون، رأى فيه أهل الحق منتصرين، وأهل الباطل وقد غرقوا بعد أن ادعوا الألوهية، رأى فيه الأنبياء يعذبون ويسجنون ثم يُعزَّون، رأى فيه المستضعفين قتلوا في الأخدود فكان ذلك انتصارا لهم لا هزيمة رغم فنائهم الظاهر.

انتقل من خلاله من الدنيا إلى الآخرة فتحوّل في أحاديث النار باكيًا داعيا ربّه أن لا يكون من أهلها، وتحوّل في الجنة، قصورها وأحبارها فاستمتع بها وهو لا يزال في الدنيا تحت وطأة الابتلاءات فاشتقت نفسه، واستقل ما يقدّمه أمام ما ينتظره في الجنة.

تلا حالة مؤمن سورة ياسين وما ناله من الأجر الذي أنساه ما لحقه من تعذيب فقال: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (26) يَمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿[ياسين: 26-27]، فعلم أن دخول الجنة ينسي كل ألم.

لذلك لا عجب أن نرى أهل غزة وقد جعلوا القرآن العظيم محور منهجهم التربوي، وقدموا أنموذجا في التزكية والصبر يجمع بين الأخذ بالأسباب الروحية والأسباب المادية، فصنعوا الأسلحة، وحفروا الأنفاق، وخرجوا العلماء الأفاضل في شتى العلوم التقنية والإنسانية وفي ذات الوقت خرجوا حقاظا متقنين لكتاب الله، بل إن هذا القرآن قد فجر فيهم من الطاقات ما لم يتصوره أحد، فتجد الواحد منهم تخرّج من أقسام الأدب العربي إذا به يقود

الحركة عسكريا بخطط سبقت المدارس العسكرية، وآخر يقود المفاوضات بطريقة أعجزت فرق المفاوضات التي درست العلوم المختلفة التي تخدم ذلك.

يتحدث أحدهم أن الحرب أفهمته قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250] ويذكر أنه ما فهمها إلا في الحرب⁵⁴. وهذا طفل صغير نازح يصبر نفسه بتلاوة قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْتَ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: 40]، ثم قال: هذه الآية تنطبق علينا هنا، في قطاع غزة، فنحن هاجرنا وخرجنا من بيوتنا، اللهم لا تضيع لنا أجر الثبات والصمود والصبر وانصرنا يا الله⁵⁵.

بل إننا نجد أنه حتى الصهاينة لاحظوا ارتباطهم بالقرآن فقال أحدهم: في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، قال: هذا الذي يجعل أحدهم -يقصد حماس- يصبر تحت الأنفاق شهورا عدة⁵⁶.

ومن إيجابيات هذا التعلق أن صرنا نرى نموذج مسلم ترتفع عن المذهبيات، واستوعب كل المذاهب، فما من مسلم يراه ويسمعه إلا ويحسّ به مسلما وكفى، فحين يرمي أحدهم يتلوا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] فلا ينادي قطبا، ولا وليّا ولا غير ذلك، من الشخصيات.

الخاتمة:

قدم المسلم في غزة نموذجاً إعجازياً في الثبات النفسي في ظروف لا يطيقها البشر في العادة، مما جعل العالم الغربي المشتكي من ظاهرة الهشاشة النفسية يتساءل عن سر ذلك، وهي فرصة سانحة للدرس الكلامي الجديد ليبيّن على ذلك مسلماً دعواً يستهدف من خلاله غير المسلمين، بل وحتى المسلمين المتشكّكين وخاصة الجيل الرقمي الذي يقضي أكثر أوقاته أمام وسائل التواصل الاجتماعي التي تحمل من شأنها أن تضعف إيمان المؤمنين، وتصيبهم بالاستلاب الفكري، والتأثر الشهواني، اللذين ينتجان شكاً في الدين وجرأة عليه.

وإذا استطاع الدرس الكلامي الجديد استغلال ما انتهى إليه علم النفس وخاصة الإيجابي منه، فسيسهل عليه الصمود أمام كثير من الدعاوي الإلحادية، وخاصة تلك التي تأتي إلينا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي وتسلك طرقاً نفسية بعيدة عن المنطق، بل إن أبوابها حين تسمعهم تجدهم بعيدين عن المنطق وأدلته، وإنّما يؤسسون لإلحادهم على أمور نفسية، فتكون البحوث النفسية ودراساتها الغربية تنبئها لعقولهم ونفوسهم، ومطية للإقناع بالعودة إلى الدين.

ولكن الحذر أن يستعير المتكلم الجديد ذلك الدرس النفسي غافلاً عن أسسه العلمانية، وله في المتكلمين القدامى قدوة حيث استفادوا من العلوم الوافدة لا بعقلية المستلب ولكن بعقلية المجتهد الذي يتبصّر ما يقرأ ويذيه في قلبه حتى يغدو ذلك الوافد خادماً للدين لا مؤثراً فيه.

وقد حاول هذا المقال سلوك ذلك استفادة من علم النفس وتجربة غزة وجعل التجربة هي الأساس لعلّ الباحثين يعكفون عليها ويستفيدون منها قدر الطاقة البشرية، وقد هالني اتفاقهم على الثبات مع تنوعهم بين رجال ونساء، أطفال صغار وعجائز كبار مما يؤكد إعجاز القرآن اجتماعياً.

وعليه يمكن أن أختتم هذا ببعض التوصيات:

- 1- الاهتمام بالتجربة التربوية في غزّة والاستفادة منها في العالم الإسلامي.
- 2- توجيه الباحثين لاستغلال ما حدث في غزّة للإقناع بقوة الإسلام وجدواه وخاصة وأن هنالك غربيين كثر دخلوا إلى الإسلام جراء ذلك فكيف لو كان الأمر مدرّسا وموجّها.
- 3- العناية بالدرس العقدي التربوي النابع من القرآن الكريم والذي يرفع المؤمن من دائرة المذهبية إلى سعة الإسلام.
- 4- توجيه دارسي الكلام إلى متابعة آخر ما استجد في العلوم الإنسانية الغربية واستغلاله في الدرس الكلامي الجديد، وحتى في سياق القديم منه.
- 5- توجيه الباحثين في علم الكلام إلى ترصّد الدعوات التي تهاجم الإسلام وتدعو إلى الإلحاد، وإتقان الخطاب المناسب لجيل (التفاهة) وجيل (المشاعر).
- 6- توجيه الباحثين إلى المزج بين تجريبي غزّة التطبيقية، وتركيا متمثلة في رسائل النور.
- 7- استقصاء الفيديوهات الموثقة في غزّة واستعمالها كمادة علمية لأن تضييعها بمثابة تضييع كنز نفسي وإيماني.

قائمة المصادر والمراجع:

الرسائل:

- محمد باسل أحمد نجار، الخبرات الصادمة وأثرها على الصلابة النفسية والكفاءة الذاتية المدركة ومفهوم الذات لدى الشباب الفلسطيني، جامعة النجاح الوطنية نموذجاً، ماجستير، برنامج الإرشاد النفسي والتربوي بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2021م.

المقالات:

- حراث علي، جغراب محمد عرفات، الصلابة النفسية لدى طلبة البكالوريا دراسة ميدانية بمدينة الأغواط، مجلة الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، عدد 34، جوان 2018.
- سامر رضوان، الصحة والإيمان، موقع الأرشيف العربي العلمي، 2018، رابط: <https://osf.io/preprints/arabixiv/8nw46>
- سوزان صدقة بسيوي، مجدة السيد الكشكي، التدين كمتغير معدل للعلاقة بين جودة الحياة النفسية والتطرف الأيديولوجي لدى عينة من طلاب الجامعة السعودية، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة أسيوط، مجلد 27، عدد 10، أكتوبر 2012م.
- عبد العاطي أحمد الصياد، رياض علي عبد الوهاب القطراوي، الصلابة النفسية وعلاقتها بإدراك أساليب الحرب النفسية بين الماهية والقياس لدى سكان المناطق الحدودية في قطاع غزة، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 13، جانفي 2015.
- لخضر شايب، الظاهرة النفسية عند قطبي مدرسة التحليل النفسي، مجلة الإحياء، عدد 7، 1424هـ/2003م.
- ندى محمد الرشود، فعالية برنامج إرشادي معرفي سلوكي في الصلابة النفسية لدى أمهات مرضى الفصام، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم التربوية والاجتماعية، العدد 7، الجزء 2، صفر 1443هـ/ سبتمبر 2021م.

مراجع باللغة الإنجليزية:

- Amanda Hiles Howard, Megan Roberts, and Tony Mitchell, *The Relationship Between Spirituality and Resilience and Well-being: A Study of 529 Care Leavers from 11 Nations*, Adversity and Resilience Science, Published online 2023 Feb 11, <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC9918825/>.
- Christopher Justin Jacobi, Richard G. Cowden, and Brandon Vaidyanathan, *Associations of Changes in Religiosity With Flourishing During the COVID-19 Pandemic: A Study of Faith Communities in the United States*, *Frontiers in Psychology*, April 2022, <https://www.frontiersin.org/journals/psychology/articles/10.3389/fpsyg.2022.805785/full>.
- Fayeze Mahamid, Dana Bdier, Samah Jabr, and Zaynab Hinnawi, *The Association Between Posttraumatic Stress Symptoms and Suicidal Ideations*

among Palestinians: The Mediating Role of Spirituality, Social Support, and Mindfulness, Cambridge Prisms: Global Mental Health, 30 July 2023, <https://doi.org/10.1017/gmh.2023.41>.

- Fayez Mahamid, Guido Veronese, and Dana Bdier, *War-related Quality of Life is Associated with Depressive Symptoms and Hopelessness among Palestinians: Sense of Belonging and Resilience as Mediating Variables*, Global Mental Health, First published online: 17 October 2022, <https://doi.org/10.1017/gmh.2022.52>.
- Guido Veronese, Alessandro Pepe, Marwan Diab, Yasser Abu Jamey, and Ashraf Kagee, *Living under Siege: Resilience, Hopelessness, and Psychological Distress among Palestinian Students in the Gaza Strip*, Global Mental Health, 10 September 2021, <https://doi.org/10.1017/gmh.2021.37>.
- Edward B. Davis, Everett L. Worthington Jr., and Sarah A. Schnitker (Editors), *Handbook of Positive Psychology, Religion, and Spirituality*, Springer, 2023, <https://doi.org/10.1007/978-3-031-102745>.
- Saritoprak, S. N., & Abu-Raiya, H.. Living the Good Life: An Islamic Perspective on Positive Psychology. In E. B. Davis, E. L. Worthington Jr., & S. A. Schnitker (Eds.), *Handbook of Positive Psychology, Religion, and Spirituality* Springer. 2023 <https://doi.org/10.1007/978-3-031-10274-5>
- Captari, L. E., Shannonhouse, L., Aten, J. D., & Snyder, J. D. Building Spiritual Fortitude and Resilience Following Disaster: Synthesizing the Contributions of Positive Psychology and Religion/Spirituality. In E. B. Davis, E. L. Worthington Jr., & S. A. Schnitker (Eds.), *Handbook of Positive Psychology, Religion, and Spirituality*. Springer. 2023 <https://doi.org/10.1007/978-3-031-10274-5>

- ¹ (عبد العاطي أحمد الصياد، الصلابة النفسية وعلاقتها بإدراك أساليب الحرب النفسية بين الماهية والقياس لدى سكان المناطق الحدودية في قطاع غزة، ص 53.
- ² (ندى راشد، فعالية برنامج إرشادي معرفي سلوكي في الصلابة النفسية لدى أمهات مرضى الفصام، ص 101.
- ³ (المرجع نفسه، ص 106.
- ⁴ (حراث علي، الصلابة النفسية لدى طلبة البكالوريا، ص 214.
- ⁵ (ندى راشد، فعالية ، ص 107.
- ⁶ (محمد باسل، الخبرات الصادمة وأثرها على الصلابة النفسية، ص 7.
- ⁷ Christopher Justin Jacobi Associations of Changes in Religiosity With Flourishing During the COVID-19 Pandemic: A Study of Faith Communities in the United States p.2
- ⁸ (لخضر شايب، الظاهرة الدينية عند قطبي مدرسة التحليل النفسي، ص 166.
- ⁹ (سامر رضوان، الإيمان الشافي، ص 2.
- ¹⁰ (المرجع نفسه، ص 3.
- ¹¹ (المرجع نفسه، ص 4.
- ¹² (سوزان صدقة، التدبير كمتغير معدل للعلاقة بين جودة الحياة النفسية والتطرف الإيديولوجي، ص 326.
- ¹³ Christopher Justin Jacobi Associations of Changes in Religiosity With Flourishing During the COVID-19 Pandemic: A Study of Faith Communities in the United States p.2
- ¹⁴ (المرجع نفسه ص 3.
- ¹⁵ amanda hiles, The Relationship Between Spirituality and Resilience and Well-being /p179
- ¹⁶ (المرجع نفسه، ص 189.
- ¹⁷ (المرجع نفسه، ص 192.
- ¹⁸ (المرجع نفسه، ص 192.
- ¹⁹ Guido Veronese, Living under siege. P8
- ²⁰ , The association between posttraumatic stress symptoms and Faye Mahamid suicidal ideations among Palestinians. P1
- ²¹ Guido Veronese "Op. cit.". P1
- ²² (المرجع نفسه، ص 1.
- ²³ (المرجع نفسه، ص 2.
- ²⁴ (المرجع نفسه، ص 7.
- ²⁵ (المرجع نفسه، ص 2.
- ²⁶ (المرجع نفسه، ص 2.

- (²⁷ War-related quality of life. P484Fayez Mahamid ,
(²⁸ المرجع نفسه، ص484.
(²⁹ عبد العاطي أحمد الصياد، الصلابة النفسية وعلاقتها بإدراك أساليب الحرب النفسية بين الماهية والقياس لدى سكان المناطق الحدودية في قطاع غزة، ص 52.
(³⁰ War-related quality of life. P484Fayez Mahamid ,
(³¹ Seyma N. Saritoprak and Hisham Abu-Raiya, Living the Good Life: An Islamic Perspective on Positive Psychology ,p187
(³² <https://www.facebook.com/reel/373087552174113>
(³³ <https://www.facebook.com/reel/1511317322796214>
(³⁴ <https://www.youtube.com/watch?v=T9zPcZHnAbA>
(³⁵ Laura E. Captari, Laura Shannonhouse, Jamie D. Aten, and Jordan D. Snyder, Building Spiritual Fortitude and Resilience,p476
(³⁶ amanda hiles, “Op. cit.”p189.192
(³⁷ ينظر: هالة كمال الدين حسن مقلد، اليقظة الذهنية والمرونة المعرفية كمنشآت بالتفكير الإبداعي لدى طلاب الجامعة، مجلة كلية التربية، جامعة المنيا، مصر، العدد 123، يوليو 2020، ص 10
(³⁸ , The association between posttraumatic stress symptoms and Fayez Mahamid suicidal ideations among Palestinians. P2
(³⁹ أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، ص75
(⁴⁰ <https://www.facebook.com/reel/884378810400741>
(⁴¹ <https://www.facebook.com/reel/1660418544798385>
(⁴² <https://www.facebook.com/reel/822194546749539>
(⁴³ .Laura E. Captari “Op. cit.”, p478
(⁴⁴ <https://www.facebook.com/reel/466784516059455>
(⁴⁵ <https://www.facebook.com/reel/822194546749539>
(⁴⁶ <https://www.facebook.com/reel/822194546749539>
(⁴⁷ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وسنده صحيح. ناصر الدين الألباني، كتاب سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. 803/7.
(⁴⁸ <https://www.facebook.com/profile.php?id=100006111525251>
(⁴⁹ <https://www.facebook.com/reel/1015500443476524>
(⁵⁰ <https://www.facebook.com/reel/899415178678874>
(⁵¹ <https://www.facebook.com/reel/822194546749539>
(⁵² <https://www.facebook.com/reel/2044458372615782>
(⁵³ <https://www.facebook.com/reel/1624192545087597>
(⁵⁴ <https://www.facebook.com/reel/822194546749539>
(⁵⁵ <https://www.facebook.com/reel/26647809048139668>
(⁵⁶ <https://www.facebook.com/profile.php?id=100006111525251>